

## دراسة الإدمان على المخدرات بين منظور النسق الايكولوجي والطرح الاختزالي الكلاسيكي -رؤية نقدية ابستمولوجية-

✍ د. عبد العزيز حداد،

أستاذ محاضراً جامعة البليدة 2

✍ د. زبيدة الحطاح

أستاذة محاضرة ب ( جامعة يحي فارس، المدية)

### Résumé:

Cette étude aborde la problématique du réductionnisme en sciences humaines et sociales, lequel a empêché d'approcher la réalité complexe d'une manière efficace et pertinente, ce qui a engendré un affaiblissement de la perception et la compréhension des phénomènes et problèmes humaines et sociales. et par conséquent leur résolutions;

Pour pouvoir remédier a cet état de fait; certaines approches plus globalistes et systémiques sont proposées, parmi elles; la théorie des systèmes écologiques que nous essayions par le biais de cet article, d'étudier le phénomène de l'addiction a travers cette théorie dans une perspective théorique et épistémologique.

**Mots-clés:** Addiction; Réductionnisme; théorie des systèmes écologiques.

### تمهيد:

نحاول من خلال هذه الدراسة أن نقدم عرضاً عن هذا المنظور في دراسة ومعالجة الإدمان على المخدرات ومعالجته الفاعلة قياساً بالتناولات الكلاسيكية المختزلة التجزئية التي تبقى فاعليتها جد محدودة، بسبب التفسير والتدخل أحادي العوامل، ثم نشير إلى بعض

الصعوبات المنهجية والعملية التي تعترض هذا التناول النسقي المتكامل، وقبل أن نلج إلى متن الموضوع، يجدر استهلال ذلك بمدخل إبستمولوجي يؤسس لهذا الطرح.

### مدخل إبستمولوجي تأسيسي:

من الواضح أن الواقع الإنساني وما يتضمنه من مستويات وظواهر، ليس بالبساطة التي تتصورها التناولات الكلاسيكية الاختزالية، فهذا الواقع الإنساني جد معقد، وبالتالي يحتاج إلى تناولات تتمتع بالقدرة على فهم وتفسير ظواهره في مستوى تعقده، من خلال رؤى وبراديجمات جديدة، تتجاوز الكلاسيكية، وإلا ستظل قدرتنا على تحقيق أهداف العلم، وصفا وتفسيرا، وتنبؤا، وتحكما جد محدودة، ما هو الأمر الذي سيزيد من تفاقم المشكلات وتواترها وانتشارها الواسع.

### تعقد الواقع الإنساني:

إن الواقع أبعد ما يكون عن البساطة، فهو أكثر تعقيدا مما نتصوره، فالبساطة لا توجد إلا في تصميم التجارب التقليدية أو في الدراسات النفسية الاجتماعية ذات التناول السببي الخطي الكلاسيكي، كما أن التبسيط الذي، كما يقول مصطفى حجازي (2010) تم اللجوء إليه من أجل إمكانية القياس، لا يعني القدرة على تعميم النتائج على الواقع الأعقد دوما منها، لذلك فإن الاستيعاب التعقيد، أصبح ضرورة متزايدة، وقد يتمثل أحد أبرز أهداف القرن 21 في الإحاطة بتعقيد الواقع.

وعليه يصبح من الضروري لفهم أوسع وأعمق للظواهر الإنسانية الاجتماعية الاستغناء عن المنهج السببي الخطي الكلاسيكي وتبني المنهج السببي الدائري الجدلي، أو أعقد من ذلك المنهج السببي الشبكي، ذلك لأن الأول يعتمد على الاختزال والفصل والعزل والتجزئ والانتفاضة الضيقة، فيما يحاول الثاني والثالث فهم الواقع المركب والمعقد بعناصره المترابطة والمتفاعلة بشكل دينامي حي، وبتعبير أدق فإن المنهج الشبكي وفق تعريف مصطفى حجازي (2010) هو دراسة الوضعيات الكلية في حالة نشاطها على مستوى الفرد وقواه، ودوافعه.

في هذا السياق يذهب كل من موران وكارن (Morin et Kern.1993) إلى أن الأذهان المجزئة والتقنية البيروقراطية تعنى عن رؤية التفاعلات الحركية العكسية والسببية الدائرية، حيث ما زالت تعتبر في الغالب الظواهر وفق سببية خطية، وتدرك الواقع الحي والاجتماعي حسب التصور الميكانيكي/الحتمي الذي هو صالح فقط للآلات الاصطناعية،

وبشكل أوسع وأعمق، هناك عدم قدرة التفكير التقني البيروقراطي من إدارك وتصور الشامل، والأساسي، وتعقد المشكلات الإنسانية، وهو الأمر الذي سيفضي إلى تجاوز الحدود بين فروع علم النفس التي تعمل بعزلة عن بعضها، مثلما يدعو إلى ذلك دافيد باس (2009) بتوحيد مجال علم النفس وتجاوز الحدود المصطنعة التي فتتت دراسة الإنسان، بل إن الأمر قد يكون أوسع وأعمق من ذلك فتلك مهمة العلوم الإنسانية والاجتماعية برمتها.

### مبدأ الانبثاق والفهم العميق للواقع والعالم:

يتأسس مبدأ الانبثاق على فكرة أن العالم منظم وفق تعقد مطرد، ومن هذا المنظور، فإن الانبثاق يعني سيرورة التكوين لدرجة عالية للتنظيم انطلاقاً من تنظيم سابق. كما يعني الانبثاق كذلك تكوين كيانات معقدة غير قابلة للاختزال، هذه الكيانات تشكل العالم وظواهره، وتختلف في مكوناتها الأولية من خلال خصائص خاصة، ويمكن أن تكون هذه الكيانات البازغة أو المنبثقة من طبيعة فيزيائية، أو كيميائية، أو الكترونية، أو بيولوجية، أو اجتماعية أو نفسية، وهي كيان مركب من عناصر متنوعة مرتبطة ببعضها البعض بصورة إدماجية تكاملية، وكل مجموعة من العناصر تشكل مستوى من مستويات التعقيد المتلاحقة والمتدرجة، وعليه، فإن كل تقدم علمي أو اكتشاف يؤدي إلى تجلي وتكشف مجموعة من العناصر تمثل مستوى تعقد أعلى، بحيث أن الكشف الجديد لا يلغي سابقه، وإنما يتكامل معه في فهم الظاهرة، أو الواقع بصورة عامة. إذا كان هذا الواقع، سواء أكان إنسانياً أو طبيعياً، ينتظم وفق درجات ومستويات مطردة التعقيد، فإنه في ذات الوقت، يشكل كيانا واحداً متكامل الوحدات والعناصر المترابطة فيما بينها، رغم وجود مستويات ودرجات تعقد مختلفة بين هذه العناصر والوحدات، ما يؤكد أن فكرة الاختزال والفصل والعزل وفق المنظور العلمي الكلاسيكي، غير ممكنة في الواقع، وإنما هي مقارنة ذهنية علمية لمحاولة تبسيط هذا الواقع كي يكون بالإمكان ملاحظة وقياس ظواهره، وبناء مفاهيم لهذه الظواهر، واستكشاف قوانينها.

### الاختزالية والذرية انعكاساتها العلمية والتطبيقية:

يعني الاختزال وجود كيانات وظواهر منفصلة عن بعضها البعض، وهو الأمر الذي يناقض الواقع الإنساني والطبيعي، إذا أن الظواهر النفسية الاجتماعية ليست منعزلة ومنفصلة عن بعضها البعض، بل هي مترابطة، ومتداخلة ومتشابكة، تحكمها علاقات سببية جدلية متشابكة، ومحاولة العزل والفصل والاختزال هو في حقيقة الأمر تبسيط لهذا الواقع المعقد، بمستوياته المركبة، وبظواهره المترابطة، وفي هذا الشأن يشير إدغار

موران (Morin.1999) أن مبدأ الاختزال يؤدي طبيعياً إلى اختزال المركب إلى البسيط، وبالتالي يطبق على التعقيدات الحية و الإنسانية، المنطق الآلي والحتي للألة الاصطناعية، ويمكن أن يؤدي إلى إقصاء كل ما هو غير مكتم وغير قابل للقياس، وبذلك يقصى ما هو إنساني في الإنسان، بمعنى الشغف، والانفعالات، والآلام والسعادة.

وفق المنظور العلمي الكلاسيكي، فإن معظم العلوم خضعت إلى مبدأ الاختزال الذي وجه البحوث إلى معرفة واستكشاف أجزاء الكل أو النسق، بصورة منفصلة، دون معرفة الكل، أو النسق بصورة شاملة، وبالتالي فقد تم تجاهل ما قد يتميز هذا الكل بفعل عناصره المتفاعلة من خصائص، وما ينتجه من قوانين قياساً بأجزائه التي تم تناولها منعزلة، ومنفصلة عن بعضها البعض.

نجد من بين المسلمات الخمسة للوضعية المنطقية، وفق منظور برانت سليف (Slife.2004)، مسلمة الذرية (Atomisme) التي تؤكد أن الإنسان محدد في كيانه نفسه، الوحدة الأساسية للعلاقات النفسية، وبالتالي فإن الفرد يمكن عزله عن التفاعلات الذاتية المتبادلة خلال السيرورة العلاجية. (Fischman, 2009).

لهذا يرى بيشوب (Bishop.2005) أن الذرية، بغية التمكن من المعالجة التجريبية لعناصر بسيطة ومعزولة -أو هدف آخر- تؤدي على اختلاف أشكالها ومجالاتها إلى اختزال الظواهر الإنسانية إلى حدودها الدنيا التي لا يعود لها شبه محدد بالواقع الحي، في كل تعقيداته وتحولاته، وانغراسه في سياقاته المختلفة و فرطة الغنى.

وعليه فإن الرؤية المختزلة الذرية التي أدت إلى تكاثر التخصصات العلمية المغلقة، أفضت إلى إدارتك وتصور مشوه للواقع المعقد، وظواهره الإنسانية الاجتماعية، ذلك أن التخصص، كما يذهب إلى ذلك، إدغار موران (Morin.1999)، الذي ينغلق على نفسه دون السماح لاندماجه في إشكالية كلية شاملة، أو في تصور لمجموعة عناصر الموضوع حيث لا تراعي سوى جانب منه، فإن هذه التخصصية المفرطة تمنع من رؤية الشامل (الذي جزأته إلى فتات وقطع)، وبالتالي الأساسي الذي تحله، إنها تمنع من معالجة صائبة للمشكلات الخاصة التي لا يمكن أن تطرح وتصاغ إلا في إطار سياقها، ذلك لأن المشكلات الأساسية ليست جزئية، والمشكلات الشاملة هي أكثر فأكثر أساسية.

وفق موران وكرن (Morin et Kern.1993) فإن المشكلات غير مستقلة في الزمان والمكان، بينما الأبحاث التخصصية تعزل المشكلات عن بعضها البعض، فهناك مقاومة من قبل الجهاز الإداري الجامعي للتفكير العابر للتخصصات.

هذا ويذهب شفايتسر أبعد من ذلك إذ يرد انهيار ثقافتنا المعاصرة إلى روح العلم المادية القائمة على التخصص، ذلك الخطر الروحي الداهم الذي يفسد ما بين الروابط الوثيقة بين المعارف، والذي يعجز عن إقامة أفق عقلي واسع كما يجب أن يكون الاتساع (في صلاح قنصوه. 2008)

يضيف ذات الفيلسوف شارحا هذه التوجه الاختزالي في العلوم، أن المعرفة العلمية الحديثة يمكن أن تقترن بنظرة إلى العالم خالية من كل تأمل عقلي رحب، وذلك لأنها تقول أنها لا تعنى إلا بتقرير الوقائع الفردية، لأنه بهذه وحدها يمكن للمعرفة العلمية أن تحتفظ بطابعها العلمي، وأما التنسيق بين مختلف فروع العلم، واستخدام النتائج لإيجاد نظرية في الكون، فهذا ليس من شأنها فيما يقال (صلاح قنصوه. 2008)

بالمحصلة فهذه الرؤية المختزلة التخصصية هي التي ساهمت في تناسل وتكاثر التخصصات في علم النفس المنغلقة عن نفسها، وحتى أن النظريات ضمن التخصص الواحد هي الأخرى تعد جزرا منفصلة عن بعضها البعض، ويتضح بكل جلاء ما يحدث في علم النفس العيادي، في صور نظرياته العديدة التي كانت تشكل، إلى وقت غير بعيد، كيانات منغلقة ومتناقضة ومتنافرة، وهو الأمر الذي أثر على فهم الواقع الإنساني الاجتماعي، والشخصية الإنسانية في جميع أبعادها ومستوياتها المعقدة، ما جعل كل الجهود التي تبذل بغية توسيع هذا الفهم، ومواجهة المشكلات الإنسانية الاجتماعية، لا ترقى نتائجها إلى مستوى الوقت والجهد والمال الذي صرف من أجلها، ولذلك بقيت العديد من هذه المشكلات لا تعرف حلولا جذرية، بل أن الكثير منها قد تفاقم.

من أوضح أمثلة ذلك، على حد تعبير يمى طريف الخولي (2000): تحليلية فرويد وسلوكية واطسن اللتان تصدرتا علم النفس في أواسط القرن العشرين، وبينما نجد خطأ التفسير أنه يبالغ في تعميق وتعقيد الظاهرة النفسية وعلى حساب منهج العلم ومنطقه، نجد خطأ السلوكية في أنها تبالغ في تسطيح الظاهرة النفسية وتبسيطها، وإن كان التبسيط لحساب منهج العلم، فإنه في النهاية يقتصر على سطح الظاهرة والاستسلام الكامل للمعطى التجريبي وتفتيت موضوع الدراسة إلى ذرات مغفلة الطبايع التكاملية للكيانات الإنسانية " لتضيف أن هذا التناقض ما يزال قائما بين التفسيرات وعجزها عن التكامل ماثلا في فروع شتى العلوم الإنسانية أوضح.

**نظرية النسق الإيكولوجي في تفسير الإدمان على المخدرات وعلاجه:**

وضع برونفنبرنر Bronfenbrenner (1979) نظرية النسق الإيكولوجي Ecological system theory في كتابه بعنوان إيكولوجية النمو الإنساني The ecology of human development وقد طور هذه النظرية عدة سنوات 1986، 1986، 1993.

يرى برونفنبرنر أن النسق الإيكولوجي يتكون من عدة أنساق تؤثر في نمو الفرد وسير المجتمع، وبالتالي تحدد السلوكيات المرضية والمنحرفة والمجازفة بصفة عامة، بمعنى أن البيئة لها تأثير دال على النشاط الذاتي للفرد ونموه النفسي (Jingxin Xue, 2012) وهي ضمن هذا الإطار قد تفسر سببية الإدمان على المخدرات، وتوجه أساليب الوقاية والعلاج بشيء من الشمولية والنسقية حيث تتوزع عدة عوامل مهيئة ومفجرة ومسببة وداعمة للإدمان على أنساق النظام البيئي وهي على النحو التالي:

### 1- نسق الكائن الحي المتكامل l'ontosystème

هو مجموع الخصائص والقدرات والكفاءات وجوانب العجز والانجراحات الوراثية منها والمكتسبة التي يتميز بها الفرد، بمعنى كل جوانب الشخصية في أبعادها البيولوجية، والمعرفية والانفعالية والاجتماعية، على اعتبار أن الفرد لا يتأثر بجميع أنساق محيطه فقط، وإنما هو كذلك يؤثر في هذا الوسط.

#### العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

أ- القابلية الجينية للإدمان

ب- النمو اللاسوي للشخصية، ضعف التحكم الانفعالي، النشاط الحركي المفرط.

ج- الشخصية السيكوباتية والبيئية والتابعة.

د- انجراحية فترة المراهقة (التمرد، الانفتاح على تجارب جديدة ..)

هـ- التخلص من التوتر والملل والهروب، التقدير السلبي للذات، الخجل.

و- البحث عن النشوة والتدعيم الإيجابي

ز- ضعف الأنا الأعلى، استراتيجيات التوافق الموجهة نحو الانفعال.

### 2- النظام المصغر microsysteme:

هو الحلقة الأكثر اتصالاً بالإنسان (طفلاً أم راشداً) ويتكون من المؤسسات والعلاقات الأولية ذات التأثير المباشر على الإنسان، أبرز هذه المؤسسات الأسرة النووية والأسرة الممتدة، الرفاق، المدرسة، مؤسسات الرعاية الصحية المباشرة، وبالطبع فإن نوعية التفاعل والعلاقات ومكانة والدلالة التي يشغلها الإنسان في هذه الحلقة هي الأكثر تأثيراً على سلوكه وعلى تكوين صورته عن ذاته، وبالتالي هويته النفسية المباشرة، إذ ما يحدث في هذا النسق المصغر هو الذي يشكل الأرضية أو انجراحية للتوجه نحو تناول المخدرات، فالأسرة بتفاعلاتها غير السوية، ومرضية أنماط الاتصال القائمة تتضمن نوعياً مختلف المعوقات والاحباطات، وهذه الأخيرة تحدد بدرجة كبيرة الاستعداد النفسي الاجتماعي للتوجه نحو سلوكيات الإدمان وتعاطي المخدرات.

### العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

يمكن ذكر أهم العوامل المساهمة في نشوء الظاهرة الإدمانية ضمن هذا النسق على النحو التالي:

أ- شخصية المدمن: العوامل الوراثية، ضعف تقدير الذات، شخصية تابعة، شخصية بينية، شخصية سلبية عدوانية، ضعف الكفاءات الاجتماعية والانفعالية، ضعف الأنا الأعلى وغياب النمذجة القدوة، المخططات المبكرة غير المتكيفة، الميكانيزمات الدفاعية غير الناضجة، البحث عن الأحاسيس، البحث عن الجديد والمجازفة، الألكسيميا، النزوعية، فرط النشاط.

ب- النسق الأسري المختل: التفكك الأسري، المناخ غير السوي، العمليات غير السوية، أساليب الاتصال المختلة، الخبرات الأسرية الصادمة.

ج- محاكاة الأقران: ضغط الأقران وأصدقاء الشارع الذين يتعاطون المخدرات.

### 3- النسق الوسيط Le mésosystème

يتشكل هذا النسق من بعض المرجعيات الأساسية من مثل أصدقاء الأسرة، الجيران، مكان العمل وظروف العمل، والحي، والإدارة المدرسية، والخدمات الاجتماعية للبيئة المحلية، وما تتضمنه هذه المرجعيات والهيئات من معوقات وإحباطات وضغوطات، مما يؤثر على الصحة النفسية بشكل عام، فسلبيات هذا النظام على اختلافها تتحول إلى ضغوطات داخلية تفاقم الصراع في التفاعلات، أو تؤزم العلاقات والمشكلات داخل الأسرة أو المدرسة،

فهناك تفاعل سلبي بين معوقات واحباطات النظام المصغر والنظام الايكولوجي في توجه الفرد نحو الإدمان.

#### العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

يمكن إدراج بعض عوامل السببية لهذه الظاهرة على النحو التالي:

- أ – غياب الهيئات المختصة: وهي الهيئات والمراكز التي تتكفل بالطفولة والمراهقة ذات الانجراحية والقابلية للجنوح وتعاطي المخدرات، خاصة تلك المنحدرة من الأسر المفككة.
- ب- ظروف العمل ومكانه: حيث شكل الظروف القاسية للعمل ضغوط إضافية على الفرد الراشد، ما ينعكس على سلبي على نسقه الأسري.
- ج- ضعف مؤسسات التنشئة الاجتماعية: وهو الضعف الذي يشمل مجال توعية وإرشاد وتأطير المراهقين والشباب لدى كل من دور الثقافة والفكر، وسائل الإعلام، جمعيات المجتمع المدني، المساجد، النوادي العلمية والرياضية، الكشافة وغيرها.

#### 4- النسق الخارجي L'exosystème

يشمل المؤسسات والتشريعات التي تحكم عمل الأنساق الأخرى... ومن أبرز مكونات هذا النظام: السياسات التربوية، المناهج الدراسية، قرارات مجالس إدارات المدارس والجمعيات والهيئات العاملة في البيئة المحلية، التجهيزات التربوية ونوعيتها، سياسات العمل والأجور وفرصهما وانعكاسها على عمل الوالدين، والوضع الوظيفي والمالي للوالدين، السياسات الإعلامية والصحية والقانونية، وبصفة عامة الوضع الاجتماعي والاقتصادي.

ينعكس هذا النظام بعناصره على الصحة النفسية للفرد وتوازنه النفسي، فعلى سبيل المثال فإن الوضع المالي والوظيفي السيئ للوالدين قد يؤثر سلبي على النمو السوي للطفل وتفتح شخصيته وتقلص فرص النماء لديه وهو ينعكس مباشرة على صحته النفسية وتوازنه النفسي، وقد يكون عرضة للانحراف و تعاطي المخدرات.

#### العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

يمكن إدراج ضمن هذا النسق العوامل السببية التالية:



أ- الفقر والبطالة وأزمات السكن.

ب- الضغوط الاقتصادية.

ج- السياسات التربوية المختلفة: حيث أفضت إلى سوء التوافق الدراسي، الفشل المدرسي المبكر والتسرب، وهو أحد العوامل المفجرة للسلوك الإدماني خاصة تناول المخدرات وغياب البرامج الإرشادية الوقائية داخل المنظومة التربوية.

د- ظاهرة الأنيميا أو "اللامعيارية" السائدة داخل المجتمع ضمن سياق التحولات الاجتماعية الجارية.

هـ- الأساليب القضائية الكلاسيكية: وهي لا تساعد بالفعل من مواجهة ظاهرة الإدمان على المخدرات والترويج لها حيث بينت هذه الأساليب عن محدوديتها في هذا المجال.

و- نقص التكوين المتخصص: ويعني قلة الكوادر والأخصائيين النفسيين والاجتماعيين الذين تلقوا تكويننا معمقا مختصا في السلوك الإدماني للتكفل الجدي بالحالات المرضية، ويندرج ضمن هذا الإطار غياب مراكز بحث مختصة لدراسة هذه الظاهرة.

ز- ضعف التأطير الديني، والثقافي، والرياضي، والصحي.

## 5- النسق الكبير Le macrosystème

يمثل الإطار الاجتماعي الثقافي العام الحاكم والموجه لكل الأطر السابقة في خياراتها وتفضيلاتها وقيمتها ومعاييرها، وهو يتمثل في الخصائص الثقافية العامة للمجتمع بما فيها من معتقدات وقيم وفكر وعادات وتقاليده، كما يتمثل بالنظم السياسية والاقتصادية والتربوية الحاكمة للمجتمع، فالنظام الاجتماعي التقليدي الذي يقوم على سياسة التسلطية والتبعية والولاء والقهر، والأبوية، والهدر وبما يحمله من قيم ثقافة الجبرية والعجز المكتسب والتفكير اللاعقلاني الخرافي وتفكك الشبكة الاجتماعية وحالة الأنيميا، تشكل متغيرات جد فاعلة في التوجه نحو تعاطي المخدرات إذ ما عملت الأنظمة السابقة (المصغر، الوسيط، الخارجي) على تكوين شخصية مريضة (تابعة، تجنبيه، سلبية عدوانية، بينية) ذات الانجراحية للإدمان.

العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

أ- النظام الاجتماعي التقليدي والأساليب التربوية القائمة على التسلط والتبعية.

ب- ثقافة الجبرية والعجز المكتسب.

ج- حالة اللامعيارية (أنوميا)

د- ضعف التكافل الاجتماعي.

## 6- النسق المعولم Le Globalsystème :

إن الانفتاح الكوني الذي تحمله العولمة معها يقتضي تطوير النظرية بإضافة نظام شمولي جديد هو النسق المعولم، فمن المعروف أن العولمة وما حملته من تهاوي حدود الزمان والمكان هي بصدد خلق واقع كوني جديد له انعكاساته على النظم المجتمعية الوطنية، وبالتالي فإن له تأثير متزايد على صعد التنشئة والنمو والتفضيلات والقيم والتوجهات السلوكية ... وتحمل في الآن عينه تحديات وأزمات لا تقل خطورة وأهمية في انعكاساتها على الصحة النفسية، والتوازن النفسي، فعلى سبيل المثال فإن آثار الإعلام الفضائي على التنشئة والصحة النفسية، والتوجه نحو الإدمان، ظاهرة وكذلك ما تشكله الأزمات الدولية السياسية منها والاقتصادية من تأثير على الأنظمة والأنساق الأخرى، وبالتالي على الفرد في حد ذاته فوجود ازدواجية وهوة واسعة بين ما يعيشه الفرد في محيطه القريب أسريا ووطنيا وما يراه ويشاهده عبر القنوات الفضائية قد يشكل أحد مصادر الإحباط لديه، وما يترتب عن ذلك من استجابات اكتئابية.

فضلا عن ذلك فإن تناقضات في القيم والتوجهات الثقافية المتصارعة على المستوى العالمي تفضي إلى نوع من الثقاف السلي والاعتراب النفسي وما يترتب عن ذلك من فقدان الهوية والعفوية والأصالة الذاتية، وهذا ما يؤدي بالفرد إلى الشعور بالحزن والأسى والاستجابات الاكتئابية، وتبني الاستراتيجيات الانسحابية منها تعاطي المخدرات، كما تطرح ضمن هذا النسق ما يسمى بالجريمة العابرة للبلدان والقارات من خلال تجذر ظاهرة تهريب المخدرات، حيث أصبحت الجزائر منطقة استهلاك وعبور في آن واحد، وضعف أساليب مواجهة هذا النوع من الإجرام، ما أفضى إلى سهولة توفر المواد المدمنة لدى الشباب الجزائري.

### العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

أ- الانفجار الإعلامي الفضائي وما حمله من القيم السلبية للعولمة وثقافة العنف والجريمة.

ب- الأزمات الاقتصادية والسياسية الدولية.

ج- الجريمة العابرة للبلدان والقارات (تجارة المخدرات العابر للحدود).

## 7- النسق الزمني le chronosystème

يتضمن نسق الزمن والأحداث، بمعنى كرونولوجية الأحداث المعاشة من قبل الأفراد والأسرة والمجتمع والتغيرات النمائية والتحوليات التي يواجهونها، وانعكاساتها على نموهم واستقرارهم، وأيضا كل ما يتعلق بالزمن من حيث الفترات الحساسة لتعاطي المخدرات، بداية التعاطي، مدة التعاطي وغيرها، ذلك أن السلوك الإدماني بصفة عامة هو مسار أو سيرورة تمتد في الزمن حسب تعريف غودمان (Goodman1990): "هو مسار يتحقق ضمنه السلوك الذي يمكن أن يهدف إلى الحصول على اللذة والتخلص من معاناة وكرب داخلي، والذي يتميز بالفشل المتكرر، واستمرارته رغم تبعاته السلبية.

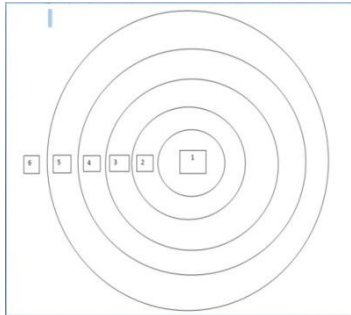
العوامل السببية المحتملة لهذا النسق:

أ- ولوج مرحلة المراهقة.

ب - تغير بنية الأسرة.

ج- طول مدة التعرض لضواغط الوسط.

د- طول مدة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الجزائر(الفترة الانتقالية المطولة).



الرسم البياني لترتبية الأنساق الإيكولوجية حيث أن النسق 1 يعبر عن: الكائن الإنساني، النسق 2: المصغر، النسق 3: الوسيط، النسق 4: الخارجي، النسق 5: المكبر، النسق 6: المعولم، النسق 7: الزمني الذي يحتوي الأنساق الستة الأولى.

على ضوء هذا المنظور فإن التوجه نحو تعاطي المخدرات، هو نتيجة تفاعل العديد من العناصر المنتشرة عبر الأنساق الستة، فضلا عن النسق الزمني أو السيرورة الزمنية: من الكائن الحي المتكامل، مروراً بالنسق المصغر (الأسرة) وصولاً إلى النظام المعولم (العالم)، وما تتضمنه من تفاعلات مرضية صراعية وأنماط اتصال غير سوية، تؤثر بشكل أو بآخر في تشكيل الشخصية المريضة ذات الانجراحية للإدمان، فهذا التناول يتسم بالشمولية والنسقية، ويتعد عن الطابع الاختزالي والتفسير الأحادي الذي يلاحظ لدى العديد من التناولات الكلاسيكية.

لذلك بدأ نوع من إعادة النظر في هذه التناولات الاختزالية في مسألة الإدمان على المخدرات حيث تناول الملتقى الوطني للمؤسسة الفرنسية لعلم النفس شهر سبتمبر 2008 هذه المسألة، إذ شارك في هذا الملتقى العديد من الباحثين من مختلف مدارس علم النفس العيادي، وقد تم تقديم توصيات جامعة تدعو إلى ضرورة تنمية الرؤى المتقاطعة لفهم ظاهرة الإدمان، حيث طرحت تساؤلات جديدة حول السيرورات المنخرطة في دينامية التفاعلية للإدمان، مقترحة في ذات الوقت، العمل من أجل بلورة وصياغة منهجيات وأدوات تسمح بتقدير وجهة المفهمة والتصورات التنظيرية المقترحة، وعليه تم اقتراح مراعاة الجوانب النمائية والنسقية في السلوكيات الإدمانية من خلال نموذج متكامل تفاعلي (Battaglia. 2010) مثلما ظهرت التناولات ذات التوجه الشمولي، على غرار التناول البيو نفسي الاجتماعي، والتناول التوفيقى المتكامل.

### التناولات الكلاسيكية والإدمان على المخدرات:

تميزت التناولات الكلاسيكية المتمثلة في السيكاثرية، التحليلية، المعرفية السلوكية، الأسرية، الجدشطلتية، الانسانية والتفاعلية غيرها بالخصائص التالية في دراسة وعلاج الإدمان:

- التفسير الأحادي العوامل حيث ترجع السببية الإراضية للسلوك الإدماني لعامل واحد وتتجاهل العوامل الأخرى.
- التركيز على عملية العلاج على العامل الواحد المرتبط بالسببية الإراضية وضمن افتراضات النظرية وأدواتها التشخيصية والتقويمية والقياسية واستراتيجياتها العلاجية.

- التركيز على نوع واحد من نوعية العوامل، سواء العوامل المهيئة، أو العوامل المفجرة، أو العوامل المعدلة، أو العوامل الداعمة.
- التركيز في الغالب على العلاقة السببية الخطية أكثر من العلاقة الدائرية الشبكية.
- محدودية هذه التدخلات الاختزالية في حد من انتشار وشيوع ظاهرة تعاطي المخدرات.
- بداية تجاوز التدخلات العلاجية الكلاسيكية وإطعام هذه التدخلات باستراتيجيات علاجية مستوحاة من مختلف النظريات والنماذج، وهو ما بات يعرف حالياً بالعلاج التوفيقى الإدماجي المتكامل الذي يلتقى مع منظور النظام الإيكولوجي في محاولة تجاوز الطرح الاختزالي الذري الخطي الذي يميز في الغالب التناولات الكلاسيكية.

### التناول الشمولي النسقي وإكراهات الممارسة العملية:

قد يبدو، كما يذهب إلى ذلك مصطفى حجازي (2008) أن منظور النسق الإيكولوجي تعجيزيا في إلحاحه على الشمول والتعقيد مما يصعب الممارسة العملية، إلا أن المقصود ليس إدخال شروط ومتغيرات تجعل التشخيص والتدخل متعذرا بل الغاية هي التأكيد على ضرورة التحلي دوما في المقاربة والتدخل بالمنظور الشمولي الذي يضمن أكثر مما عده أخذ القوى الفاعلة في كل حالة بعين الاعتبار، المقصود ليس التعجيز، بل إبقاء الرؤية مفتوحة الأفق متحررة من أسر النظريات الجزئية التي رغم تماسك رؤاها قد تهمل عناصر حاسمة في تحديد الحالة، ذلك أن هذا المنظور على شموليته أقرب للواقع وتعقياته من النظريات الجزئية، بما يمكن أن نسميها بالنظرية الواقعية وفق نظرة كارل بوبر (1933) الذي ربط بين النظرية الأقرب إلى الواقع ومبدأ قابلية التنفيذ للحكم على علمية النظرية، حيث يرى أنه بقدر ما ترتبط قضايا علم بالواقع فهي قابلة للتنفيذ، وبقدر ما هي غير قابلة للتنفيذ فهي لا ترتبط بالواقع (كارل بوبر، 2006، ص 338)، وبالتالي فإن النظرية التي تكون الأقرب إلى فهم الواقع بتعقيدهاته، هي الأقرب إلى العلمية.

على المستوى العملي، ولتجاوز هذا التعقيد في تناول مشكلة الإدمان على المخدرات، في الممارسة التطبيقية، يتطلب الأمر التدخل على عدة مستويات يمكن إيجازها فيما يلي:

المستوى الأول ( الفهم والتصور والتصميم): يعني بوضع استراتيجية مفصلة لمواجهة ظاهرة تعاطي المخدرات من خلال عدة أبعاد: البعد الإنمائي، البعد الوقائي، البعد العلاجي حيث يستخدم في هذا المستوى منظور النظام الإيكولوجي الذي يستوعب جميع العوامل

السببية والعناصر في صياغة مشروع الاستراتيجية، يسند إلى خبراء من عدة متخصصات ومجالات في هيئة مستقلة.

**المستوى الثاني (التدخل والتنفيذ):** ويعني بالتدخل الميداني حسب كل اختصاص في النسق المحدد، في العيادات ومراكز الاستشفاء، الأسرة، المدارس، مؤسسات التنشئة الاجتماعية، الإعلام، الثقافة والفكر، الاقتصاد، القضاء والأمن، يضطلع بهذه المهمة التدخلية مختصون كل حسب مجاله مع وجود تنسيق عملي تدخلي بين هؤلاء المتدخلين والأخصائيين يشرف عليه هيئة المستوى الأول، وفيما يتعلق بالتدخل العلاجي الصرف، يتفق منظور النظام الايكولوجي مع العلاج الانتقائي الادماجي حيث يمكن لهذا الأخير أن ينفلت من القوقعية النظرية والدوغماتية التي ميزت الاتجاهات الكلاسيكية، لي طرح نظرة أكثر شمولية ومرونة في تفسير وعلاج السلوك الإدماجي، كما يمكن الاستعانة في هذا المجال أيضا بما يعرف بنموذج النظام الشامل (Henry Jay Richards 1993) الذي يطرح طريقة علاج شاملة للإدمان على المخدرات.

بهذه الكيفية، يمكن أن تكون النظرة شاملة نسقية في تحديد السببية الإراضية والتفسير، وتقديم الوقاية والعلاج، لكن على مستوى التدخل يكون تخصصيا محددًا كل حسب مجال عمله وفق النسق المستهدف، وبالتالي نضمن الإحاطة بكل العوامل المهمة والمفجرة والمعدلة والداعمة للسلوك الإدماجي، وهذه الإحاطة الشاملة تمكن من وضع استراتيجية متعددة القطاعات، ما يرفع درجة التحكم في هذا الوباء بنسب مرتفعة، ويكون التدخل الاستباقي الوقائي محور هذه الاستراتيجية.

### سيرورة تجاوز التناولات الاختزالية:

بالمحصلة، نحن أمام مشكلات إنسانية اجتماعية باتت جد معقدة تعقد الواقع ومستوياته حيث لم يعد بإمكان براديفمات النظريات الكلاسيكية أن تتناولها، بفهم أوسع وأعمق ومعالجة فاعلة، ما أضحت عملية استبدال أو تجاوز هذه البراديفمات مطلبًا عمليًا تفرضه الحاجة الواقعية الملحة إلى حلول سريعة للمشكلات النفسية الاجتماعية، وفق منظور جديد بعدما أبانت البراديفمات الراهنة على حدودها، لكن هذا الاستبدال أو التجاوز لا يتم بطريقة جذرية ثورية، وإنما وفق سيرورة متدرجة مجددة لكثير من الافتراضات والمبادئ العلمية السابقة أو كما يشير إلى ذلك بكثير من التفصيل والإيضاح توماس كون (1992).

حيث أن الانتقال من براديجم في حالة أزمة إلى براديجم جديد يمكن أن ينبثق عنه تقليد جديد للعلم القياسي، مسألة أبعد ما تكون عن وصفها بأنها عملية تراكمية، تتحقق عن طريق تنقيح وإحكام البراديجم القديم أو توسيع نطاقه، بل إنها على الأصح تجديد أو إعادة بناء المجال فوق قواعد أساسية جديدة، وهو إعادة من شأنها أن تغير بعض القواعد النظرية الأكثر أساسية لمجال البحث، وكذلك تجديد الكثير من مناهج و تطبيقات البراديجم لهذا المجال، وسيكون هناك أثناء فترة الانتقال قدر كبير من التداخل، تداخلا إن لم يكن كاملا فإنه هام، بين المشكلات التي يمكن حلها بواسطة البراديجم القديم والجديد معا، ولكن سيكون هناك أيضا فارق حاسم في طرائق الحل، وعندما تكتمل عملية الانتقال، يكون قد غير أهل الاختصاص نظرتهم إلى مجال بحثهم وإلى مناهجه وأهدافه.

بمعنى آخر فالمعارف التي تراكمت بفعل النظريات الكلاسيكية لا يمكن أن تستبعد أو تلغى أو يستغنى عنها نهائيا، بل إن الأمر في مثل هذا العملية التطورية للعلم، هو إعادة تنظيم هذه المعارف أو بعضها وفق مقتضيات الوقائع والواقع من خلال البراديجم الجديد، إنها عملية كما يقول هربارت بوترفيلد (Butterfield. 1949) تنطوي على تناول نفس المعطيات الموجودة قبلا، ولكن بعد وضعها في نسق جديد من العلاقات مع بعضها من خلال وضعها في إطار مغاير (توماس كون، 1992، ص135)، وهذا ما قد تمنحه نظرية النسق الأيكولوجية من إطار نظري قادر على إعادة تنظيم المعارف المفككة والمفتتة والمتناثرة بين النظريات إلى بوتقة نسقية تمكن الباحث والأخصائي من الرؤية المتكاملة لفهم الظواهر ومعالجتها، ويبقى هذا تناول النسق الشامل غير نهائي، وإنما يطرح كمرحلة انتقالية لما بعد الوضعية المنطقية لمحاولة إعادة القدرة للعقل على التركيب والتوليف، بعدما كرس هذه الوضعية، بمكوناتها التجريبية والوظيفية، التوجه الاختزالي والتفكيكي، والتخصصي، وما أنجر عن ذلك من فهم مشوه للظواهر والمشكلات الانسانية بصفة عامة.

بالتالي تفاقمها وانتشارها بشكل وبائي، وفي هذا الشأن يقدم محمد أبو القاسم حاج حمد (2004) تحليلا لهذه الحالة ويقترح بديلا لها حيث يرى أن الضوابط العلمية والمحددات العامة لموجهات التفكير لعصرنا الراهن قد قيدت المنهجية بمعرفة علمية معاصرة تجاوزت حتى المنطق التقليدي الوضعي باتجاه التحليل والتفكيك منطلقا من النسبية والاحتمالية المفتوحة سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، وبما أن هذا السقف الحضاري قد عجز عن التركيب بعد أن أوغل في التحليل والتفكيك فلم يستطع أن ينتج عالما جديدا للقيم.

لقد بدأ الانفصال بين عقليين يحتاج كلاهما للآخر، العقل الاستدلالي الذي يعتمد على التأمل العقلي، والعقل الاستقرائي الذي يعتمد على التجربة المباشرة، مما يعني أن معرفتنا المعاصرة تتطلب منهجا يجمع بين الاستدلال والاستقراء، بمعزل عن ما يؤدي إليه الاستدلال من نهائيات لاهوتية وخرافية، وبما يؤدي إليه الاستقراء من تفكيك مطلق ووضعية، وعجز عن التركيب، وهنا تبرز الحاجة أو الضرورة لعقل عملي معرفي معاصر يتجاوز الوضعية ويتجاوز اللاهوتية معا، ولا يكون هذا العقل المطلوب في هذه الحالة إلا كونيا يستطيع التعامل، وبمنطق التركيب العلمي مع كون لامتناه في الكبر، ولآمتناه في الصغر.

### بدائل التفكير المقترحة في مواجهة التوجهات الاختزالية الذرية:

بشكل عام، يرى هوارد غاردنر (2008) أن المستقبل يتطلب كلا من العقل المتخصص، والعقل التركيبي، والعقل الإبداعي، والعقل المحترم، والعقل الأخلاقي، للتعامل الفاعل مع قضاياها التي تطرح علينا تحديات متزايدة، والعقل التخصصي لم يعد يكفي بمفرده، بل لا بد معه من عقل تركيبي، إن العقل الذي سيكون مرغوبا جدا في القرن 21، سوف يكون العقل الذي يستطيع أن يقوم بعملية التركيب لفيض من المعلومات المتنوعة بشكل جيدا. من جهة أخرى، يدعو كل من موران وكارن (Morin et Kern .1993) إلى ضرورة وجود تفكير يربط ما هو متقطع، ويحترم المتنوع ويعترف بالموحد، والذي حاول تحديد التفاعلات المتبادلة من خلال:

- تفكير جذري (البحث في جذور المشكلات).
  - تفكير متعدد الأبعاد.
  - تفكير منظم نسقي يتصور العلاقة بين الكل والأجزاء.
  - تفكير إيكولوجي الذي، بدلا من عزل الموضوع المدروس، يعتبره بعلاقته الإيكولوجية المنظمة الذاتية في تفاعله مع الوسط الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والطبيعي.
  - التفكير الذي يدرك ويتصور إيكولوجية الحركة وجدليتها
  - التفكير الذي يعترف بأنه لم يكتمل، ويتفاوض مع اللاتيقين.
- إذا كان الأمر على هذا النحو على مستوى التفكير، فإن في مجال تطور العلوم والتخصصات، فنحن أمام نزعة جديدة اقتضتها الحاجة إلى فهم هذا الواقع المعقد، تتمثل في بروز الإرهاصات الأولى لانتشار ما يسمى بالعلوم البينية، حيث لم يعد بالإمكان الانغلاق ضمن علم معين، أو تخصص ما، لحل مشكلات ومعضلات مركبة ومعقدة، ما قد لا يستوجب اكتساب التفكير التركيبي التوليفي فقط، وإنما كذلك نوع جديد من القراءة، ويعلق نبيل علي



(2009) على ظاهرة تنامي ظاهرة العلوم البيئية حيث يرى أن معرفة عصر المعلومات تنحو إلى كسر الحواجز التي تفصل بين فروع المعرفة المختلفة، ما أدى إلى ظهور الكثير من العلوم البيئية التي تتداخل فيها التخصصات وتتعدد، ويتطلب ذلك من أهل التخصص قراءة الكثير خارج نطاق تخصصاتهم.

على نحو تطوري مماثل، فإن التطور المعرفي لا يتجه نحو إنتاج معارف أكثر فأكثر تجريدية، وإنما على عكس ذلك، فهي في اتجاه وضعها ضمن السياق (Bastien.1992)، وهو الأمر الذي سيرز ظروف انغراسها، وبالتالي حدود صلاحيتها، ويضيف باستيان أن التسييق (Contextualisation) هو شرط ضروري وأساسي لفاعلية الأداء المعرفي "ويعني ذلك ارتباط المعرفة بالواقع بكل تجلياته ومستوياته المتعددة المنبثقة.

مهما يكن من أمر، فإن مشكلات الواقع المعقد هي التي ستفرض التجديد وإعادة النظر في الافتراضات والمبادئ والمناهج وأساليب التفكير التي قامت عليها النظريات والتناولات الكلاسيكية، ذلك أن منطق البراغماتية العملية التطبيقية، ستعمل على تفتيت الذهنية الدوغماتية التي تهيمن على المتخصصين داخل القوقعات النظرية، فالممارسة العملية ذات الاحتكاك المتواصل بالواقع ومشكلاتها هي التي ستسهم بقسط كبير في عملية التغيير البراديغماتي، وتعيد صياغة وطرح بدائل ابستمولوجية ونظرية بما يتناسب مع هذا الواقع وتعقيده، ومشكلاته، وتحدياته.

### المراجع:

- 1- باس دافيد (2009): علم النفس التطوري، ترجمة مصطفى حجازي، مؤسسة كلمة والمركز الثقافي العربي، بيروت.
- 2- بوبر كارل (2006): منطق البحث العلمي، الطبعة العاشرة، ترجمة وتقديم محمد البغدادي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
- 3- حاج حمد محمد أبو القاسم (2004): أبستمولوجية المعرفة الكونية، دار الهادي بيروت.
- 4- حجازي مصطفى (2008): الصحة النفسية، منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- 5- حجازي مصطفى (2010): علم النفس والعولة، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- 6- علي نبيل (2009): العقل العربي ومجتمع المعرفة: مظاهر الأزمة واقتراحات الحلول، عالم المعرفة، رقم 370، الجزء الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 7- غاردنر هوارد (2008): خمسة عقول من أجل المستقبل، ترجمة هلا الخطيب، مكتبة العبيكان، الرياض.
- 8- قنصوه صلاح (2008): فلسفة العلم، دار التنوير، بيروت.

9- طريف الخولي يمني (2000): فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، رقم 264، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

10- كون توماس (1992): بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، رقم 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

11- Bastien.C (1992): **Le décalage entre logique et connaissance**; in Courrier de CNRS, n°79, sciences cognitives, Octobre 1992.

12- Battaglia.N; Bruchon Schweitzer M. Decamps;G : **introduction. Esquisse d'une approche intégrative du concept d'addiction: regards croisés.** Psychologie Française .2010.( article in press)

13- Bishop.R.C (2005): **Cognitive Psychology: Hidden Assumptions**, in critical Thinking about psychology .Edited by: Brent D. Slife Jeffrey S, Reber and Franck C. Richardson. Washington. D.C.APA.

14- Bronfenbrenner, U. (1979). **Ecology of human development: Experiments by nature and design.** Cambridge: Harvard University Press.

15- Fischman,G (2009) : **L'évaluation des psychothérapies et de la psychanalyse** : Fondements et Enjeux; Masson; Paris.

16- Goodman, A., 1990. **Addiction: définition and implications.** Br. J. Addict. 85, 1403–1408.

17- Henry Jay Richards, (1999): **The Heuristic System Precision and Creativity in Addiction Treatment.** Journal of Substance Abuse Treatment, Vol. 17, No. 4, pp. 269–291.

18- Jingxin Xue (2012): **The Construction of Higher Education Entrepreneur Services Network System a Research Based on Ecological Systems Theory.** Physics Procedia 25 (2012) 1757 – 17

19- Jun sung Hong; Hui Huang, Bushra Sabri, Johnny S Kim (2011) **substance abuse among asian American youth/ an ecological review of literature.** Children and youth service review 33. 669-677.

20- Morin, E (1999) **Les sept savoirs nécessaires a l'éducation du futur.** Seuil .Paris.

21- Morin;E ; Kern,A.B (1993) **Terre - Patrie .** Seuil. Paris.